استثمار مبدأ التدرّج في تعليميّة أنشطة اللغة العربيّة المرحلة الابتدائية – نموذجا-

الدكتور: عبد الغني زمالي
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب واللغات
جامعة سوق أهراس (الجزائر)

ملخـــص:

يعد مبدأ التدرّج من أهم المبادئ البيداغوجية والديداكتيكية في العملية التعليمية –خاصة إذا تعلق الأمر بمتعلمي المراحل الأولى– التي يعتمدها المعلم في تبليغ معارفه للمتعلم، فلا ينبغي لنا أن نثقل كاهل المتعلم بكثير من الحقائق والخبرات والمحتويات التي مازال ذهنه لم يتأهب لها بعد، إذ يجب أن يكون تعليمه مبنيا على التدرّج، شيئا فشيئا، قليلا قليلا، تقدم له محتويات المعارف والمضامين في ضوء التناسق والانسجام فيم بينها – في إطار تكامل المواد– فيقدم الأهم على المهم، والأساسي على الثانوي والأصلي على الفرعي وهكذا؛ أي الانطلاق من الأصول لإرهاصها وإرسائها. ثم الدور على الفروع.

Abstract:

Among the pedagogical and didactic principles on which the teacher relies to transmit the knowledge to the learner, that of the progression and the graduation, especially when it is about a beginner public. From this point of view, it is inconceivable to overload the learner with realities, experiences and contents that exceed his mental capacities. As a result, in the framework of the complementarity of subjects, the teaching / learning must be done gradually by favoring the main one on the secondary and the essential on the complementary one.

توطئة:

يعد **مبدأ التدرّج اللغوي** من أهم المبادئ التي تعتمدها التعليمية الحديثة في تعليم اللغة وتعلّمها، والمقصود به هو القيام بإجراءات تنظيمية دقيقة لمحتوى المادة أو المعرفة أو الخبرة المراد تبليغها للمتعلم، مراعيا في ذلك جملة من الأسس المهمّة منها الانسجام والتوافق اللغوي بين المتعلم والمحتوى، وهذا أمر طبيعي يتماشى وطبيعة الاكتساب اللغوي الذي يتعلق بتنظيم العناصر اللغوية من أجل تحقيق الأهداف المنشودة و المتوخاة من العملية التعليمية التعلمية، ولعل الهدف الأسمى من هذا الترتيب هو "أن نجعل المتعلم لا يحس بأي غرابة عندما ينتقل من درس إلى آخر، بل يشعر بوجود تسلسل متماسك بين الدروس المتتالي، ولا يتم ذلك إلّا إذا كان الدرس الواحد يرتبط بما قبله، لما فيه من التدعيم والتثبيت للمكتسبات السابقة،وبالذي يليه بالتمهيد له"[1]، أي السابق يخدم اللاحق.

والترتيب هنا لا يقصد به الترتيب الخطي للعناصر اللغوية، وإنما هو ترتيب بعضها فقط في الدرس الواحد، وبعض الدروس في الوحدة التعليمية الواحدة، وهذا الإجراء العملي يمكّن المتعلمين من مقارنة ومقابلة العناصر اللغوية بعضها ببعض ومن ثمة ربط الصلة بينها مثل الربط بين المفرد والمثنى والجمع، والربط بين المذكر والمؤنث والربط بين الفعل ومصدره، وهذا الترابط المنطقي يسهم في تنمية الرصيد اللغوي للمتعلمين ويفيدهم في المراجعة اليومية للمعارف و الخبرات المقدّمة و توظيفها في مختلف المقامات و السياقات التعليمية.

لقد تطرق الباحث **عبد الرحمان الحاج صالح** إلى أهمية هذا المبدأ و ضرورة الاعتماد عليه أثناء الفعل الديداكتيكي والكيفية والطريقة التي يجب اتّباعها في تنظيم الموضوعات وترتيبها ترتيبا منطقيا من شأنه أن يذلل الصعوبات التي تواجه المتعلمين حيث قال:" توزع الأنظمة البنيوية، أي المثل الجزئية من النظام الأصلي إلى النظام الفرعي على المحور الذي تتسلسل فيه العمليات التعليمية داخل الموضوع الواحد وأكثر من درس إن اقتضى الأمر ذلك، ثم يكون هذا الترتيب على المحور بحيث يستطيع المتعلم أن يستنبط - من تلقاء نفسه ودون تنمية أو شرح- شكل المصفوفة التي تندرج فيه، أي القياس الذي يجمعها"[2]. فالمقصود هنا الترسيخ للأصل والعمل على تثبيته؛ حتى وإن اقتضى الأمر زيادة المدة الزمنية على حساب البرنامج، لا لشيء سوى أن الفروع تبنى على الأصول، ولا مال لإرساء الفروع ما لم تكن الأصول صحيحة البناء.

إنّ المعلم الجاد ينبغي له أن لا يتقيد بطريقة واحدة نمطية ومملة، بل هو مطالب بتوظيف كل الطرائق التي يرى أنها كفيلة ببلوغ الأهداف المتوخاة من الموضوع المقدم، لأن - هذا الأخير- هو الذي يفرض الطريقة الملائمة لتدريسه وليست الطريقة هي التي تفرض الموضوع.

فالقاسم المشترك بين الطريقة المتّبعة والموضوع المقدم هو مبدأ التدرّج الذي يجب أن يكون شاملا لجميع مكونات المنهاج التربوي الذي يشتمل على مجموعة من الأنشطة المخططة لإحداث تكوين

يحقق الأهداف والطرائق والوسائل وأساليب التقويم، وعليه يرى أهل الاختصاص والمهتمون بالشأن التربوي أن مبدأ التدرّج يجب أن يكون في جميع أطوار العملية التعليمية خاصة إذا تعلق الأمر بالمرحلة الابتدائية أي:

1-التدرّج في تحديد الأهداف: وفقا للمناهج المعتمدة الآن، فإن الوصول إلى الملمح النهائي يتطلب تحقق الكفاءات الشاملة المحدَدَة في كل مادة وأحيانا في كل مقطع، هذه الأخيرة تتكون من مجموع الكفاءات الختامية المكوَّنة بدورها من مجوع الأهداف المسطّرة في كل درس.فالمعلم ينطلق من الهدف المسطر وصولاً لكفاءة ختامية لكل مادة.... إلى غاية الوقوف على الملمح النهائي.

2-التدرّج في اختيار المعارف والخبرات: التدرج في هذا الاختيار لا دخل للمعلم فيه إذْ هو مقيد برنامج ومنهاج محدد على ضوئه يتم بناء التعلمات وإرسائها.

3-التدرّج في اختيار الطرائق المناسبة لكل مرحلة تعليمية: تختلف طبيعة الدروس وعلى ضوئها يختلف اختيار المعلم للطريقة المناسبة

4-التدرّج في اختيار أساليب التقويم الملائمة: إن هذا التدرج تحكمه بالدرجة الأولى الفروقات الفردية للمتعلمين إذْ هي المتحكمة في طبيعة الأسئلة إن كان التقويم اختبارا.

من خلال ما سبق ذكره يمكننا القول: إن ترتيب العناصر اللغوية يكون انطلاقا من الأصل إلى الفرع؛ أي من العناصر الخالية من الزيادة إلى المزيدة منها، ومن السهل إلى الأقل صعوبة، وحتما سينعكس هذا إيجابا على تحصيل المتعلم للعناصر اللغوية المقدمة ليستطيع من تلقاء نفسه الربط بينها واستثمارها في باقي الدروس الأخرى، بالبدء من المطرد إلى البنى التركيبية والأبنية الصرفية، وتأخير الشاذ منها ولو كان أكثر استعمالا وتداولا بغية مسايرة النمو اللغوي الذي يسير من البسيط إلى المركّب عن طريق تحليل المادة اللغوية إلى وحدات صغيرة يسهل على المتعلم فهمها واستيعابها.

والجدول الآتي يبيّن بعض الأصول وما يقابلها من فروع*:

الأصل	الفرع
المفرد	المثنى/الجمع
المكبّر	المصغّر
الفعل الماضي	الفعل المضارع/الأمر
المذكر	المؤنث
الحركات	سائر العلامات
الصرف	عدم الصرف
الإعراب في الأسماء(البصرة)	البناء
البناء في الأفعال(البصرة)	الإعراب

النكرة	المعرفة
النصب في المنادى	البناء
الفعل أصل المشتقات(الكوفة)	المصدر
المصدر أصل المشتقات(البصرة)	الفعل
الفعل (في العمل)	الاسم/الحرف

من أجل إيصال المعارف للمتعلّم وإكسابها له، بشكل واضح ومقصود يجب أن يعتمد المعلّم على مبدأ التدرّج في تلقين المعارف والخبرات، بوصفه من أهم المبادئ البيداغوجية والديداكتيكية في العمليّة التعلّمية التي يجب أن تتبع في أي مرحلة تعلميّة خصوصا الابتدائية، ويكون بالتدريج شيئا فشيئا، قليلا قليلا، فتقدم الأصل على الفرع والأساسي على الثانوي وهكذا.

كما يسري مبدأ التدرّج على مستوى الدرس الواحد والحصة الواحدة حيث يتدرج بالمتعلّم المتلقي:

أ- "من السهل إلى الصعب؛

ب- من المعلوم إلى المجهول؛

ج- من البسيط إلى المركب؛

د- من الواضح إلى المبهم؛

هـ- من المحسوس إلى المعقول؛

و- من الجزئي إلى الكلي؛

ز- من الأهم إلى المهم؛

ح- من الحاضر إلى الغائب؛

ط- من الفهم إلى التحليل؛

ي- من التحليل إلى التركيب"[3].

1-مبدأ التدرّج في التراث اللغوي العربي:

لقد اهتم تراثنا اللغوي العربي بمبدأ التدرّج، فقد تطرق إليه ابن خلدون في المجال البيداغوجي حيث قال: "إنّ تلقين العلوم للمتعلّمين إنّما يكون مفيدا إذا كان على التدرّج، شيئا فشيئا، وقليلا فقليلا، يلقى عليه (على المتعلّم) أولا مسائل من كل باب في الفن هي أصول ذلك الباب، ويقرّب له في شرحها على سبيل الشرح الإجمالي، ويراعى في ذلك قوة عقلية واستعداده لقبول ما يرد عليه، إلى أن ينتهي إلى آخر الفن، وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم، إلا أنّها جزئية وضعيفة، وغايتها أنّها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله، ثم يرجع به إلى الفن ثانية، فيرفعه (المدّرس) في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها، ويستوفي الشرح والبيان ويخرج عن الإجمال ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه، إلى أن

ينتهي إلى آخر الفن، فتجود ملكته وهذا وجه التعلّم المفيد، وهو كما رأيت إنّما يحصل في ثلاثة تكرارات، وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخلق له"[4].

يقصد ابن خلدون بالفن هنا: العلم الذي يدرسه المتعلّم (نحو، صرف، بلاغة، قراءة...إلخ) يكون مفيدا إذا كان مبنيا على التدرّج لأنّ فيه مراعاة لقوة عقل المتعلّم وميولاته واستعداده وحاجاته، وختم قوله بالإشارة إلى الفروق الفردية الموجودة بين المتعلّمين، لأنّهم ليسوا على درجة واحدة من الفطنة و النباهة والذكاء، وإذا أردنا أن نمثل لما يصبو إليه ابن خلدون في تعلم المعارف فإنّنا نبدأ بحدودها وماهيتها ثم الهدف والغاية من دراستها، ثم نتطرق إلى قواعدها وقوانينها وهكذا سنشعر أنّنا انتقلنا بالمتعلّم من مستوى إلى آخر مع مراعاة سنه، يقول عبد الباسط العلموي في هذا المبدأ: "فمن ذلك إذا لمح فيه -في المتعلّم- خيرا وأنس فيه رشدا، ينبغي أن يؤدّبه (المعلّم) على التدريج بالآداب الحسنة والشيم المرضية والدقائق الخفية"[5]، ويقول أيضا: " يرغّبه مع ذلك التدريج على ما يعين في تحصيله"[6].

لقد ذكر أبو الحسن الماوردي جملة من الشروط يجب اتّباعها عند التعليم و ذلك باستثمار مبدأ التدرّج في العلم حيث يقول " وأمّا الشروط التي يتوفر بها علم الطالب، وينتهي معها كمال الراغب مع ما يلاحظ به من التوفيق ويمدّه من المعونة، فتسعة شروط:

الأول: العقل الذي يدرك به حقائق الأمور.

الثاني: الفطنة التي يتصور بها غوامض العلوم.

الثالث: الذكاء الذي يشعر به حفظ ما تصوره، وفهم ما علمه.

و**الرابع**: الشهوة.

و**الخامس**: الاكتفاء.

و**السادس**: الفراغ.

و**السابع**: عدم القواطع المذهلة.

و **الثامن**: طول العمر واتساع المدة.

و**التاسع**: الظفر بعالم سمح، متأنّ في تعليمه.

فإذا استكمل الشروط التسعة فهو أسعد طالب وأنجح متعلّم وقد قال الإسكندر: "يحتاج طالب العلم إلى أربع: مدّة وجدّة وقريحة وشهوة وتمامها في الخامسة: معلم ناضح"[7].

أمّا الإمام أبو حامد الغزالي فيقول في مبدأ التدرّج: "... فما من علم إلّا وله اقتصار واقتصاد واستقصاء"[8]، أي يجعل بحصول أي تعلّم ثلاث مراحل:

1- مرحلة الاقتصار.

2- مرحلة الاقتصاد.

3- مرحلة الاستقصاء.

وهذه المراحل مبنية على مبدأ التّكرار والتدرّج في تقديم المادة التعليميّة الواحدة، حيث يوجّه نصائح قيمة للمعلم يوصيه فيها بضرورة التدرّج في المجال التربوي لأنّ فيه فوائد جمة وعديدة وعليه أن "يراعي التدرّج فيها، وهكذا إلى بقية العلوم ولا تستغرق وقتا في فن واحد منها طلبا للاستقصاء فإنّ العلم كثير والوقت قصير"[9].

2/ مبدأ التدرج في العملية التعليمية الحديثة

مبدأ التدرّج مهم في العمليّة التعليميّة التعلّمية، يجب أن يعمّ سائر مكونات المنهاج المدرسيّ* بوصفه مجموعة من المكوّنات تتضافر فيم بينها لتقديم مهارات ومعارف وخبرات للمتعلّم، وتزويده بجملة من الإرشادات والضوابط.

وهذا ما نلاحظه بصورة جلية في الكتب التي تعرف بالجيل الثاني، حيث أنّ كل درس – تقريبا في كل مادة- يتأسس على ثلاثة مراحل:

1/مرحلة الاكتشاف:

مرحلة جدّ مهمة لأنها تدفع بالمتعلم إلى البحث ومحاولة الاكتشاف فرديا، وطرح معارفه التي لم يسبق له وأن تعلمها داخل القسم.

2/بناء التعلمات:

هذه المرحلة تلي المرحلة الأولى، وهي مهمة جدا حيث يتم فيه جمع الإجابات المتناقضة، الصحيحة والخاطئة حتي يتم غربلتها فيعزّز الصحيح ويدحض الخاطئ.

3/ مرحلة التطبيق:

مرحلة ختامية يتم في استثمار ما تم بناؤه خلال الدرس، وإدماج التعلمات.

إذن فمبدأ التدرج لا يتعلق فقط بطبيعة المعارف –كما سلف الإشارة إليه- وإنما أيضا يجب مراعاة هذا التدرج أثناء تقديم هاته المعارف.

وحتى تكون العمليّة التعليميّة نتائجها مضمونة يجب الاهتمام بهذا المبدأ وإعطائه الأهمية اللازمة، وهذا بالتأكيد يتوقف على المعلّم المجتهد من خلال توظيف كل الآليات والطرائق لبلوغ الهدف المنشود من خلال الموضوع المراد تعليمه، فالموضوع هو الذي يفرض طريقة معينة لإنجاحه وليست الطريقة هي التي تفرض الموضوع التعلّمي والقاسم المشترك بينهما هو مبدأ التدرّج الذي يجب أن يكون موجودا في العمليّة التعلّمية: التدرّج في تحديد الأهداف، وتخطيط المنهاج واختيار المحتويات والمضامين المعرفية، والطرائق والأساليب التقويمية وهكذا..إلخ.

"إنّ الدور الذي يقوم به المعلّم ليس بالأمر الهيّن كما يعتقد الكثير منّا لأنّه يقوم بدورين: الحصول على الهدف الضروري من المعرفة، ومن ثمّة توصيلها إلى التلاميذ، بالإضافة إلى ذلك فإنّه يمارس التدريس و هو مهنة معقدّة يجب الاحتراس منها، لذا يجب أن يكون ذا كفاءة علميّة وتربويّة

عالية، تمكّنه من توصيل المعلومات للتلاميذ بطريقة واضحة ومفيدة"[10]، إضافة إلى هذا فإنّ عمله أيضا "يتضمن تحديد مقدار التمارين التي يجب أن يقوم بها التلاميذ ونوعها وتوزيعها، فالتمارين وسيلة لتثبيت المعلومات المكتسبة التي فهمها المتعلّم واكتسبها خلال مروره بخبرة سابقة"[11].

وحتى تكون **العلاقة بين المعلّم ومتعلّميه متميّزة** يجب أن تكون:

1-المعاملة الطيّبة من جهة والاحترام والحزم من جهة أخرى.

2-مناداة المتعلّم لمتعلّميه بأسمائهم تعزّز الثقة في نفوسهم وتنمي قدراتهم وتصقل مواهبهم.

3-اعتماد المعلّم أسلوب الثواب والعقاب أثناء التعامل مع متعلّميه يعزّز من هيبته و احترامه.

4-اتّسام المتعلّم بالقدوة الحسنة أمام المتعلّمين يزيد من احترامهم له،ويؤثر فيهم إيجابا.

5-استعمال المتعلّم للألفاظ والكلمات الإيجابية التشجيعية مع المتعلّمين يعزّز من انتماءهم للمدرسة.

6-احتفاظ المعلّم بالوقار وحرصه الشديد على التعامل الحسن يساعده على توصيل المعارف والخبرات بيسر.

خـــاتمة:

وختاما؛ مبدأ التدرج بيداغوجيا أضحت من الصعب الاستغناء عنها خصوصا في الإصلاحات التربوية الأخيرة، لما تحققه من سهولة في بناء التعلمات لدى متعلمي الطور الابتدائي، فمبدأ التدرج يتيح للمتعلم الانتقال من البسيط – بعد اكتسابه- إلى المركب. فعلى سبيل التمثيل تلاميذ الابتدائي (سنة رابعة) لا يدرسون علامات الرفع مجتمعة إلا بعد ترسيخ الضم علامةَ رفع، ثم يتدرج ليدرك مستقبلا أنها ليست العلامة الوحيدة للرفع، ويتعرف ذاتيا على باقي التعلمات، وهذا الأمر يسهل على المعلم بناء التعلمات، وبالموازاة يسهل على المتعلم اكتسابها.

الهوامش والمراجع والمراجع:

1 وليد عبد اللطيف هوانة: المدخل في إعداد المناهج الدراسية، دار المريخ للنشر، الرياض، السعودية، 1998، ص32.

2 عبد الرحمن حاج صالح: الأسس العلمية واللغوية لبناء مناهج اللغو العربية في التعليم ما قبل الجامعي، مجلة اللغة العربية، مارس 2000، ص

3 محمد البوزيري: مبدأ التدرّج في العمليّة التعليميّة، المجلة التربوية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ع8، 2002، ص ص 36- 37.

4 ابن خلدون عبد الرحمان: المقدمة،تح درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط2000،2،ص156

5 محمد زيعور: الفكر التربوي عند العلموي، دار إقرأ، ط1، 1986، ص 111.

6 المرجع نفسه، ص111.

7 أبو الحسن الماوردي: أدب الدنيا والدين، تح مصطفى السقا، دار الفكر، ط3، (د.ت)، ص ص 74-75.

8 أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدنيا، دار الكتب العلمية، ط1، 1986، ج1، ص 52.

9 المرجع السابق، ص 75.

* أي التدرّج في تحديد الأهداف، واختيار المحتويات والمضامين وكذلك اختيار الطرائق التعليميّة ووسائل التقويم.

10 رشيد حميد العبودي: التعليم والصحة النفسية (د. ت)، ص 79.

11 عبد الرحمان صالح لرزق: علم النفس التربوي للمتعلّمين، دار الفكر العربي، لبنان، ص 29.